الخزف ذو البريق المعدني لقلعة بني حماد

أة/ بن مصباح مليكة
جليد عقيلة
المتحف الوطني للآثار القديمة

يعتبر الخزف ذو البريق المعدني أو الغضار المذهب كما تسميه المصادر العربية أجل وأعظم ابتكار في صناعة الخزف في العصور الإسلامية، وهو ابتكار إسلامي خالص غير مسبوق في الحضارات السابقة على الإسلام ولم يتوصل إليه الصينيون بالرغم من علو شأنهم في مجال صناعة الخزف[1].

وقد أثير جدال كبير حول أصل موطن الخزف ذي البريق المعدني وأخذ هذا الموضوع حيزا مكانيا وزمنيا في مجال الدراسات الآثارية الإسلامية*، وبعد مناقشات جادة بين علماء الفنون والآثار بات من المستقر عليه اعتبار العراق وبالضبط مدينة سامراء هي الموطن الذي ولد فيه الخزف ذو البريق المعدني في القرن 3هـ/ 9م ومن العراق خرج إلى باقي بقاع العالم الإسلامي[2].

وعلى الرغم من أن ابتكار الخزف ذي البريق المعدني جاء نتيجة تقدم صناعة الخزف في العراق أيام الخلافة العباسية، هناك من يرى أن هذا الابتكار جاء نتيجة لمراحل من التقليد والاقتباس الإسلاميين للخزف الأبيض المستورد من الصين والذي كان منتشرا

في أسواق العراق[3]. غير أن هناك عوامل أخرى تجاهلها المستشرقون هي التي ساهمت بطريقة مباشرة وقوية ودفعت بالخزاف المسلم إلى تطوير صناعة الخزف وفق النظم والتوجيهات الجديدة للدين الإسلامي، فالإسلام وعلى لسان نبينا محمد صلّي الله عليه وسلّم حرم استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة لما تدل عليه من الترف والإسراف**. فراح الخزاف المسلم يبحث عن وسيلة فنية جديدة تقرب الأواني الخزفية من حيث لونها للأواني الذهبية ويعوض نفسه ويغنيها عن كل ما هو محرم. ولكن هذا التحريم لم يمنع صنع الأواني من الذهب والفضة تماما ولكنه شجع المسلمين على الإقبال بكثرة على الخزف ذي البريق المعدني[4].

لم ينته القرن التاسع الميلادي حتى صار الخزافون المسلمون سادة هذه الصناعة ولم يقتصر العراق لوحده في إنتاجه بل تعدى حدوده الجغرافية من الشرق والغرب، وذلك لأن الأساليب الفنية في صناعة الخزف كانت تنتشر بسرعة عظيمة في شتي أنحاء العالم الإسلامي. فظهر في إيران في العهد العباسي والسلجوقي والمغولي واستمر في تطوره خلال العصرين التيموري والصفوي. كما عرفته بلاد الشام ومصر في العهد الطولوني وبلغ ذروته في العصر الفاطمي والعصرين الأيوبي والمملوكي[5] ويرجع سبب انتشار البريق المعدني غربا بدرجة أولى إلى هجرة الكثير من الفنانين والصناع وأصحاب الحرف من إيران والعراق إلى مصر والشام طلبا للأمان والاستقرار أيام الغزو المغولي للعراق في منتصف القرن **3 هـ/ 9 م**.[6]

وقد تلقي بلاد المغرب والأندلس الخزف ذو البريق المعدني من العراق منذ فترته المبكرة، إذ أنه ظهر على البلاطات الخزفية لمحراب مسجد سيدي عقبة بالقيروان والتي يبلغ عددها 139 بلاطة وضعت على شكل إطار لهذا المحراب. وتذكر المصادر العربية أنها جلبت من بغداد أيام حكم الأمير الأغلبي أبي إبراهيم أحمد (242هـ- 249هـ/ 856 م- 863م)[7] وأغلب الظن أن هذه البلاطات قد حملها خزافون ممن يجيدون صنع البريق المعدني لكي يضعوا هذه البلاطات في المكان المراد لها، ولكي يصنعوا ما قد كسر أثناء النقل. وليس من المستبعد أن يكونوا علموا الخزافين المحليين طريقة صنع البريق المعدني. ويؤكد هذا الكلام ما ذكره اليعقوبي في كتابه " البلدان " أن مهاجرين من العراق وخراسان كانوا كثيري العدد بإفريقية الأغلبية واستقروا في المدن المهمة كالقيروان وقابس.[8] بعد ذلك انتقلت صناعة الخزف ذي البريق المعدني إلى المغرب الأوسط وعرفته كل من قلعة بني حماد وبلغ درجة عالية من التطور في بجاية.

كما انتشرت صناعة البريق المعدني وذاعت في أنحاء كثيرة من الأندلس غير أن اللقي الأثرية قليلة حول الفترة الممتدة ما بين القرنين 5هـ-7هـ/ 11م-13م أي فترة ملوك الطوائف وعصري المرابطين والموحدين، لكن النصوص التاريخية تشير إلى هذه الصناعة في القرن 6هـ/12م بمدينة قلعة أيوب الواقعة في الشمال الشرقي من اسبانيا في مقاطعة بلنسية واستمرت هذه الصناعة خلال القرون 7هـ-9هـ/ 13م-15م في كل من المرية وإشبيلية وباترنا وبلغت قمة ازدهارها في الجنوب الشرقي من اسبانيا في إقليم غرناطة.[9]

لقد لقي الباحثون في مطلع القرن 19م صعوبة كبيرة في سبيل الوقوف على أسرار صناعة الخزف ذي البريق المعدني، فالنصوص العربية التي عثروا عليها كانت من الناحية الكيميائية والصناعية قليلة وشحيحة. وعللوا ذلك أن الأصل في تعلم المهن في الشرق إنما كانت التجارب فقط، وأن أسرار الصناعة لم تكن تدّون بل كانت تنقل شفاهيا وعمليا ومن ثم كانت ندرة النصوص وتشتتها.[10] ومن بين ما وصل إلينا نجد نص لأبو القاسم الكشاني "عرايس الجواهر ونفايس الأطياب" يعود إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي فيه جزء يعطي كيفية صناعة البريق المعدني.[11]

وعلى أية حال فإن إنتاج الأواني ذات البريق المعدني***. وتتطلب صناعته إحراق الآنية المغطاة بطلاء حرقا أوليا بعد تمام عملية التجفيف، وفوق هذه الطبقة الزجاجية وبواسطة الريشة تنفذ الزخارف بطبقة رقيقة من الأملاح المعدنية التي تحتوي على عدّة أكاسيد من بينها وأهمها أكسيد النحاس وأكسيد الفضة اللذان يذابان في أحد الأحماض كحمض الخل[12] ويضاف إليها الكبريت والمغرة وتحرق حرقا بطيئا في جو مختزل وتحت درجة حرارة منخفضة أقل من سابقاتها، عندئذ تتحول الأكاسيد المعدنية باتحادها مع الدخان إلى طبقة معدنية رقيقة جدا. تخرج الأواني من الفرن وتغسل بالماء وعند سقوط الضوء على الطبقة المعدنية يأخذ الإناء لون البريق المعدني المختلف إما ذهبيا أو أحد أطياف اللونين البنّي والأحمر أو الأحمر النحاسي والأصفر والأخضر وذلك حسب التركيب الكيمائي للأكاسيد.[13]

قد سبق وأن ذكرنا أن محراب جامع القيروان كانت تزينه مربعات خزفية ذات بريق معدني مستوردة من العراق تحمل زخارف نباتية وهندسية وكتابية وهي على نوعين أحادية اللون ومتعددة الألوان.[14] تعد هذه البلاطات من الوثائق ذات الدرجة الأولى لتاريخ الخزف العراقي وليس الأغلبي، إذ ثبتت بأن زخارفها ليست إفريقية المنبع ولكنها شرقية الأسلوب والتقاليد[15]، ولم يتأثر الخزاف الحمادي بها ولم يتفاعل معها. فقد تميزت الأواني ذات البريق المعدني بالقلعة بأحادية اللون وتمثلت في اللون الأصفر المائل أحيانا إلى اللون الأخضر والبني وقليلا ما نجد الأحمر النحاسي الذي يكون متأخرا وهذا لنوعية طرازه الذي يشبه ما وجد في بجاية العاصمة الثانية للحماديين، وبأشكالها المفتوحة التي زينت سطحها الداخلي ونادرا الخارجي بعناصر نباتية وحيوانية وكتابية.

ومن بين هذه القطع النادرة قاعدتين الأولى تحمل زخرفة حيوانية لرأس غزال على أرضية نباتية من الأزهار المحورة تشبه الطراز الفاطمي للقرن 5هـ/11م، وقد شاع رسم الغزال في القصور الأموية كقصير عمرة وخربة المفجر وقصر الحير الغربي، كما وجد منقوشا على الخشب الفاطمي. والثانية تحمل دوائر صغيرة تشبه حبيبات اللؤلؤ واحتمال أن تكون هذه القطعة مستوردة من مصر (لوحة 1). ويوجد قطعة ثالثة (لوحة 2- أ) تتمثل في حافة تحمل كتابة أنجزت بالخط الكوفي المورق، فيها الصيغة الأميرية " ***مما أمر بعمـ...*** " هذه العبارة معروفة لدى الورشات الفاطمية للخزف

الراقي أو النسيج والتي تنص على تصريح للقيام بهذا النوع من الخزف من طرف الخليفة[16].

كما استعملت القلعة الطلاء المعدني على الخزف المعماري (لوحة 2- ب) الذي يتمثل في بلاطات صليبية عليها زخارف معدنية عبارة عن أشكال هندسية وأخرى كتابية مركبة مع نجمات ثمانية الرؤوس مكسوة بطلاء أخضر زرقاوي وتجلت الزخرفة المعدنية بعناصر محببة لدى الحماديين من هندسية ونباتية وكتابية بالخط الكوفي بأسلوب متقن جميل تشمل عبارة " اليمن". وقد كانت هذه العبارة شائعة في خزفيات المغرب الإسلامي كأشير ورقادة وقرطاج والقيروان والمهدية وصبرة والمنصورية.

إن قلة القطع التي بحوزتنا لا يُعطينا فكرة شاملة عن هذا النوع الراقي والفاخر من الخزف، وربما يرجع ذلك لقلة إنتاجه لأسباب نجهلها، أو أن الحفريات الأثرية لم تكشف بعد عن ما هو دفين في أرضية قلعة بني حماد. ولكن ما نستطيع قوله أن أسرار هذه الصناعة تعلمها الحماديون على أيدي فنانين مشارقة، لكنهم لم يكونوا مجرد أداة تقليد فحسب، بل كشفت هذه القطع عن قدرتهم في إنتاج خزف ذي بريق معدني أنجز بدقة وإتقان وجودة ضاهى الخزف الفاطمي خلال القرن 4هـ/10م بمصر، وحتى الإيراني والعراقي في الفترة العباسية.

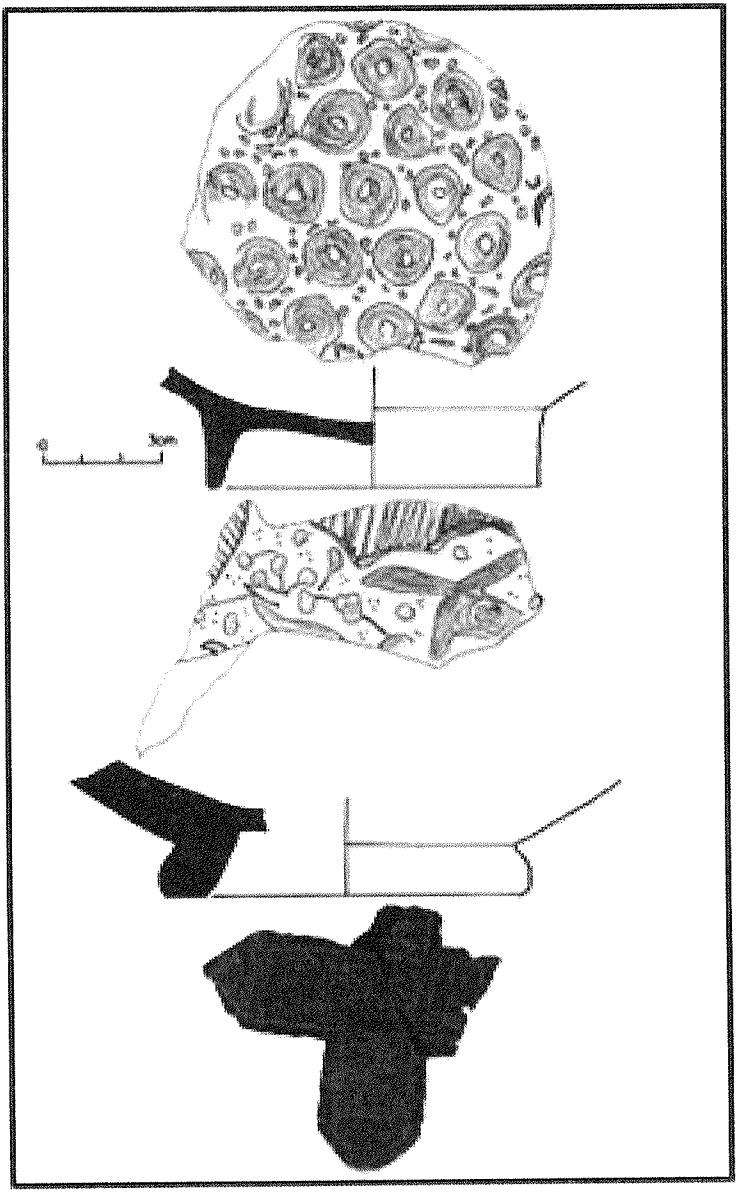

لوحة 1 – خزف ذو البريق المعدني

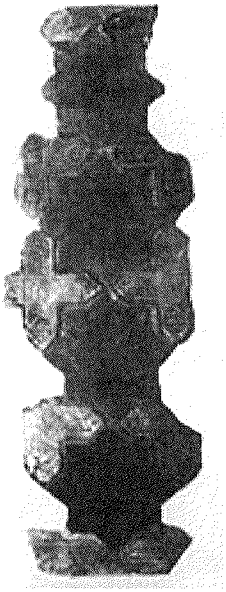

لوحة 2 : أ- قطعة من صحن

ب- تبليط جداري

الهوامش :

(1) يوسف (عبد الرؤوف)، **الخزف الإسلامي**، متحف الخزف الإسلامي، صندوق التنمية الثقافية، القاهرة، مصر، 1988م، ص.5.

* هناك ثلاث نظريات : النظرية الفرنسية وتنسبه إلى إيران ويتزعمها الأستاذ ميجون (MIGEONG) وفينير(Vignier Ch) والنظرية الألمانية وتنسبه إلى مدينة سامراء وصاحبها الأستاذ ساري (Sarre) والنظرية الإنكليزية وتنسبه إلى مصر وصاحبها الأستاذ بتلر (Butler).

(2) ياسين (عبد الناصر)، الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي (دراسة آثارية حضارية للتأثيرات الفنية الوافدة)، الجزء الأول، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002، ص، 410.

(3) Lane (A.), **Early islamic pottery Mesopotamia, Egypt and Persia**, London, (S.D), p.11.

** إن تحريم استعمال الأواني الذهبية والفضية أساسها الأحاديث النبويّة الشريفة ومن المتفق عليه لدى علماء المسلمين أن السنة هي المصدر لثاني في التشريع الإسلامي وأنها تنفرد بالتحليل والتحريم شأنها شأن القرآن الكريم ومن بين هذه الأحاديث قوله صلّى الله عليه وسلّم : " لا تلبسوا الحرير ولا الدّيباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضّة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدّنيا ولنا في الآخرة"وقوله أيضا : " الذي يشرب في إناء الفضّة إنما يجرجر في بطنه نار جهنّم". صحيح البخاري، كتاب الأطعمة وكتاب الأشربة، المجلد الثالث،شركة الشهاب، الجزائر، 1990، ص 207 وص 251.

(4) حسن (زكي محمد)، **فنون الإسلام**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ/ 1981م، ص.259.

(5) يوسف (عبد الرؤوف)، المرجع السابق، ص. 8.

(6) العبادي (أحمد مختار)، **قيام دولة المماليك في مصر وسوريا**، دار النهضة العربية، بيروت، 1986 م، ص. 148.

(7) Marçais (G.), **Les faïences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan,** contribution à l'étude de la céramique musulmaneIV. Paris, 1928, p. 10.

(8) اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن وهب)، **وصف إفريقيا الشمالية، مأخوذ من كتاب البلدان،** نشره هنري نيريس ،الجزائر، 1830 هـ/ 1960م، ص. 6.

(9) مرزوق (محمد عد العزيز)، **الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس،** دار الثقافة، بيروت، ص. 106.

(10) حسن (زكي محمد)، **الفن الإسلامي في مصر،** دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1401هـ/ 1981م، ص.105.

(11) جليد (عقيلة)، **التأثيرات الفاطمية على الخزف الزيري والحمادي،** كتامة والحضارة الفاطمية، الجزائر، 2007، ص. 84 من :

Moulièrac (J.), Céramique du monde musulman, Coll De L'IMA et de JP et F. Croisier, paris, 1999, p.56.

*** مع التقدم والتطور العلمي في مجال علم الخزف أصبح من السهولة القيام بتحاليل كيميائية لمعرفة مكونات البريق المعدني، وإن تعذر علينا القيام بها على مجموعتنا المدروسة.

Soustiel (J.), **La céramique islamique**, guide du connaisseur, Paris, 1985, p.46.;

(12)Migeon (G.), Manuel d'art Musulman arts plastiques et industriels, Paris, 1927, p. 167.

(13) ديماند (م)، **الفنون الإسلامية**، ترجمة أحمد عيسى، مراجعة وتقديم أحمد فكري، دار المعارف، القاهرة، 1982 م،ص.175.

(14)Marçais (G.), L'architecture musulmane d'Occident, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris, Art et Métiers graphiques, 1954, p. 45.

(15) العجابي (حامد)، " **الفن الإسلامي أسسه المشتركة، مضامينه وأشكاله**" الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة، أعمال الندوة العالمية المنعقدة في استانبول ابريل- نيسان، دمشق، 1989م، ص. 72.

(16) جليد (عقيلة)، بن مصباح (مليكة)، **الزخرفة على الخزف قلعة بني حماد،** مقال في طور النشر في حوليات المتحف الوطني للآثار القديمة.